الاقتراب كمفهوم نفسي

في طريق تنمية روح المواطنة في المجتمع

د. محمد شطوطي

جامعة الجزائر2

إنّ الإنسان المعاصر هو في حاجة إلى المرافقة(1)، وهي ضرورة في عصر كثرت فيه الأشياء(2)... هذه الأشياء كثيرًا ما كانت سببا لقلقه، ومرضه(3) لكن علماء النفس أدركوا أنّ معرفة الآخر، والاقتراب منه مهما كان هذا الآخر هو في طريق معرفة ظروفه(4)، والعمل على أساس هذه المعرفة التي تجنبنا الحكم على هذا الآخر مهما كان جنسه، أو سنّه أو عقيدته... دون دليل(5)، وبها فقط يمكن إصلاحه، والعمل على تمتين علاقاته بمجتمعه كفرد مشارك في البناء، والتطور.

وعليه فإنّ الإقتراب كمفهوم نفسي(6) ضرورة ملحّة للوصول إلى نتائج هي في خدمة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد(7)، وفي المقالة الكثير من الآراء، والأفكار التي تظهر الإقتراب وأهميته في التربية، والتعليم، وفي علم النفس، وفي العلاقات الاجتماعية.... وهو في طريق تنمية روح المواطنة في نفوس أفرادهم وهم في المجتمع... من خلال المؤسسات التربوية بكلّ أنواعها، وفي مجالات أنشطة الشباب، فما هو الإقتراب؟

- الإقتراب:

أو المرافقة هو معرفة من نعلَّم، أو نكلم حتى لا نصدر أحكامًا هي من خيالنا دون معطيات عن صاحبها، إذن الاقتراب هو معرفة الآخر بصبر، وجهد لكن النتائج ستكون أفضل، ولا تفتقر إلى شيء لا بالزيادة، ولا بالنقصان...

والاقتراب نوعان: اقتراب هو مع الأطفال في كل الأعمار قبل الدخول المدرسي، والتلاميذ الذين هم قبل الثانوي، وصورته هو جلوس المربي بالقرب من الطفل، أو التلميذ في المؤسسة التربوية تلك الصورة بها نمتِّن العلاقة بين المعلم والمتعلم ومنها إلى مبدأ أساسي في التربية (أنّ حبّ المادة من حبّ الأستاذ)(8) يقال: إنّ مهمة المربي في المدرسة هي أن يعرف التلميذ الذي يعلمه، وأن يحاول جاهدا، ودائما الاقتراب منه، ومن مشاكله بدل العقاب عن بعض التصرفات الصادرة عن المتعلم مهما كان سنّه... ويرى الفيلسوف (برتراند رسل) في هذا الصّدد: ((العقوبة البدنية في اعتقادي لا تكون أبدًا صوابًا، فالخفيف منها يحدث القليل من الضّرر من غير أن ينفع، وإنّي مقتنع بأن الشديد منه أي العقاب يولد القسوة...))(9) أيّ تصرف مهما كان صغيرًا، فهو وليد حالة نفسية، فإذا أدرك المربي هذه الحقيقة، فإنّ أقصر طريق لتجنب الضّرر بالتلميذ الذي يعلمه هو الاقتراب منه، ومعاملته لتتبع سلوكاته، وملاحظة علاقات التلميذ مع الآخرين، وهذه الحقيقة هي بداية وعي المربي بأهمية علم النفس، في العملية التربوية.

والإقتراب(10) صورته الحوار، والمناقشة بلطف دون تجريح أو احتقار الآخر مهما كان جنسه، أو سنّه.. ومجاله التعليم الجامعي بالخصوص، ومع الكبار بصفة عامة فالكلمة الطيبة يدركها الآخر دون أن يحتاج إلى غيره

لشرحها، وتحديد معناها... فالإقتراب ههنا معنوي صورته الاحترام، والثقة بين الإثنين لا غير.

ونسأل السؤال التالي: ما هو دور التكنولوجية في الاقتراب، والابتعاد بين الناس؟ وهو سؤال مشروع، وللإجابة عنه يجب أن نقرّ بأنّ العلم هو في خدمة الإنسان مهما كان جنسه، أو عقيدته، أو وطنه... لكن ما أنتجه العلماء يحتاج إلى حسن التصرف، والتحكم في نتاج العلم، فالتكنولوجية وسائل، وأشياء أحدثت علاقات من نوع جديد بين الناس، وهذا في باب الاقتراب كوسائل النفل، والهاتف النقال، وغيرهما لكن من جهة أخرى باعدت التكنولوجية بين الأفراد، وهذا في باب التعويض(11) فالتكنولوجية رغم مساعدتها للإنسان إلاّ أنّها اتعبته، وفي بعض الأحيان إلى الشقاء الأبدي كحوادث الطائرات، والسّيارات.. والحروب المدمرة التي من وراءها نفوس مريضة لا تدرك أنّ الحياة قصيرة كما أشار ألبرت آينشتاين، فلماذا نقضيها في حروب، ومعارك لا تخلد أحدًا...

وسؤالنا الآن ما هي علاقة الاقتراب في تنمية روح المواطنة(12) في المجتمع المعاصر؟

يرى (آلان)(13): (أنّ الطّاعة ضرورية لكلّ مواطن لحفظ نظام المجتمع)(14) ولا يفهم من معنى الطاعة ههنا الإذلال، وإنّما هي في طريق تحقيق المصلحة العامة لا غير.

فالاقتراب بمعناه النفسي هو في طريق الوعي بأنّ الفرد لبنة لبناء المجتمع وعليه يجب أن لا يلتفت إلاّ إلى ما يكون في صالح الوطن، ورفعته.

وسؤالنا التالي: ما مفهوم المواطنة في عصر من صفاته القلق، والأمراض المعضلة؟ وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نذكر بعض الصّفات الأخرى، فنقول: ((أنّ لكلّ عصر مواصفاته، وإذا عدنا إلى التاريخ فإننا نتبيّن هذه المواصفات ماديًا، ومعنويا، والمادية ههنا هي الحضارة التي تميز الإنسان عن غيره في البناء وفي الصّناعة، والاكتشاف، والمعنوية هي الجانب الثقافي بكلّ صورها... ومن مواصفات هذا العصر هو الخوف، والتوحد، والشك، والعاقل من أدرك هذه الثلاثية، وأدرك مناحيها على أرض الواقع(15)، وعليه أقول أنّ هذا العصر يحتاج إلى علم النفس كي نستطيع مرافقة الفرد هذا الذي يعيش في يومه دون الشعور بالسّعادة... وهذا الفرد الذي في وطنه، أو في غير وطنه هو فرد من حقه أن يعيش حياته بما يناسبها، ويرفعها رفعة العزّة، والكرامة.

لقد كان للتقدم العلمي التكنولوجي دورًا في مساعدة الإنسان اليومية لكن كثيرًا ما كانت سببًا للشقاء، والألم صورتها الأسلحة المدمرة، ووسائل النقل وسوء التصرف تلك التي أدخلت الفرد في متاهة الوحدة، وغياب العلاقات الاجتماعية بمعناها الصحيح، والهادفة إلى تمتين العلاقات في طريق الحفاظ على مقومات الوطن، فالوطن(16) ليس لفظة تقال، أو تكتب، وإنّما هو استمرارية يومية في نفس المواطن مهما كان هذا المواطن، أو هذه المواطنة...

لقد اهتزت العلاقات الاجتماعية في عصر التكنولوجية، ونحن لا نعيب التقدم العلمي، ونتاجه، وإنّما نشير إلى سوء التصريف معه، فصار الوقت لا يكفي للتواصل بأنواعه... وصارت الكلمات مختصرة، ومضيعة للوقت!! هذا رأي البعض...

ومنه أقول أنّ التكنولوجية التي لا ترفع من شأن الإنسان هي والعدم سيّان... وقد أثرت كثيرا في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان... فصار المواطن

شغله الشاغل الحصول على ما يحتاجه في زمن قياسي، ولا يلتفت إلى غير حاجاته اليومية دون سواها.

وإذا كانت حالة المواطن العادي بهذه الصورة التي نراها ليست هي في طريق استقراره النفسي، والاجتماعي والمسلك الوحيد الذي أراه ضروريا هو الاقتراب من المواطن، والعمل على مرافقته بالتوجيه، والإرشاد دون أن يشعر بالدونية(17)، فالمواطن(18) إنسان له الحق في الحياة في وطنه، وهو مشارك في إنماء وطنه لإثبات هذا الحق على أرض الواقع.

ينبغي أن يدرك المواطن أن قيمة الوطن الذي يعيش فيه هو بين يديه وله نصيب في أن يشارك فيه مشاركة فعّالة لا يلتفت معها إلى غير ما ينجزه من عمل يرفع من قيمته أمام نفسه، وأمام مجتمعه، وأمام التاريخ...

وللشاعر رأي في الوطن:

بلادي يا بلادي
فيك يسكن أولادي
كيف أغادرك...؟
وأنت بجانبي أنساك
فحبي لبلادي
لن يموت..
مهما كان تنهادي
فلي معها عقود
كتبت بالمدادي..(19)

وسؤالي الأخير ما هو دور الإقتراب في تنمية روح المواطنة في المجتمع الواحد؟ وهذا الدور لا يمكن يكون أصلا إذا لم يكن في المؤسسات التربوية، والاجتماعية، وحتى أتمكن من ضبط هذا الدور نبدأ من الأسرة.

- دور الأسرة في تنمية الرّوح الوطنية:

يرى علماء النفس أنّ الصّحة النفسية تبدأ في الأسرة وحدها، فهي التي تربي الطفل على الحبّ أو على الكره فمسؤولية الأسرة في إنماء روح المواطنة جليلة، ولا يمكن أن تعوّض، وعليه ينبغي على الأسرة أن تغرس(20) في نفس الطفل حبّ الوطن منذ الصّغر...(21)

دور المدرسة في تنمية حبّ الوطن:

لا يكفي الوقوف أمام العلم في بداية كل أسبوع، وإنّما بالإضافة إلى ذلك، وهو ضروري في إنماء المحبة للوطن، ولرموز الوطن.. وأكثر من ذلك الجانب العملي من خلال النّصوص، والأعمال المتنوعة التي كثيرًا ما كانت من المكونات الشخصية الوطنية التي لا تتهاون في حب الوطن نذكر منها على سبيل المثال:

- الأناشيد الوطنية، وهي كثيرة.
- الرسم، والتلوين والتصوير.
- الموضوعات الإنشائية...
- البحوث حول رجالات الفكر.
- البحوث حول رجالات الثورة.
- تدريب التلاميذ على المسرح....

إذن المدرسة لها دور هادف وهو غرس، وتمكين الفرد (المواطن) في الحياة الاجتماعية على أساس مقومات الوطن غايتها التي لا تحيد عنها هي المواطن الصّالح...(22)

- دور العبادة في تمتين العلاقات الاجتماعية والإنسانية:

إنّ الخطاب الديني المعتدل سند يساعد الإنسان على متانة عقيدته، والعمل بها ليعيش حياة هادئة ليس فيها ما يشوش عليها، ودور العبادة هو في تمكين الفرد (المواطن) مهم كان دينه هو الإطمئنان، والإستقرار النفسي وفيها اقتراب هو في طريق القلب لا غير. إذن لدور العبادة شأن كبير في غرس المعتقد، والحثّ على حب الوطن، (لأنّ الوطن هو مصنع الرجال والنساء إذا أردنا الحقيقة كاملة)(23)

دور المراكز الثقافية:

لا ننسى دور المراكز الثقافية التي هي في طريق نشر الثقافة من خلال مكتبات والمسرحيات، والجولات، والزيارات الخاصة بالمتاحف، والآثار... هي ثقافة فيها الكثير من نشر حبّ الوطن، وتمتين علاقة المواطن بوطنه دون المساس بغيره من الأوطان.

ولأنّ الحضارة(24) ليست ملكا لأحد، فإنّ الإطلاع على الحضارات هو في تمتين العلاقات بين الدول، والأمم والشعوب دون إقصاء أحد، ولأنّ الثقافة(25) هي من أصحابها، فإنّ المواطن يحمل مواصفاتها وهذا من حقه، ومن واجبه الحفاظ عليها في نفسه، وفي كلّ شؤون حياته فهي أيضا في تمتين علاقته مع مجتمعه الذي هو في حاجة إليه دومًا، وفي كلّ الأحوال...

- **دور الكشافة:**

هي في تعبئة الشباب بعد المدرسة ففي حصص ليس فيها غير التمكين في الحياة الاجتماعية من أجل الوطن، وقد كان للكشافة الدور الوطني بلا منازع صورته غرس الأشجار في الساحات الكبرى، وغيرها.

لست أبالغ إذا قلت ههنا أنّ موضوع المواطنة هو من أهم الموضوعات التي يجب التطرق إليها بالتحليل، والدراسة والبحث، لأنّها سرّ كل تقدم، فالذاتية الفردية هي لبنة في بناء صرح كلّ مجتمع في هذا الوجود...(26)، وأنّ الفرد، أو قل الذاتية الفردية إذا صلحت صلح معها المجتمع، ولن يفتقر إلى أفراد هم من خارج المجتمع.

فالاقتراب أراه هو أنجع وسيلة للنجاح في مجال التمكين في الحياة الاجتماعية للشباب بالخصوص هذا الذي هو في حاجة إلينا جميعا دون استثناء....

الهوامش:

(1) هي لفظة جديدة في عالم التنمية البشرية، ولها نفس المعنى مع الاقتراب أثناء التطبيق الذي هو بين شخصين لمعرفة ظروف حياته الاجتماعية خاصة.

(2) الأشياء ههنا هي التي نتاج التكنولوجيا فالإنسان اليوم يستخدم الكثير من هذه الوسائل، وصارت ضرورية في حياته وسائل النقل، وسائل الاتصال بكلّ أنواعها.

(3) وأيضا إلى موته، كالحوادث صورتها السيارات والطائرات، والبواخر...

(4) كلّ إنسان له ظروفه، ولا يمكن أن نتحكم في ظروف كل فرد، ولكن يمكن أن نتصرف دون التجريح، أو التوبيخ، بالألفاظ التي لا ترفع من شأن المتعلم، بل تدفعه إلى التمرد، والانتقام...

(5) الدليل ههنا هو ما وصل إليه المعلم أو المربي بنفسه، ودون أقوال الناس التي لا تحمل دليلا، والمربي الناجح هو الذي يتوصل إلى معرفة المتعلم من ملاحظاته هو وليس من غيره.

(6) إشارة إلى أنّ الاقتراب هو عامل على تهدئة النفس، والعمل على تنميتها، والسير قدمًا نحو المستقبل دون الالتفات إلى السيء من الأعمال، أو التصرفات السلبية.

(7) إنّ المحبة بين الناس أساسها الثقة، والإحترام، أمّا التجريح، والتهديد فلا شيء يحمل غير الحقد، والكراهية، بين أفراد هم من مجتمع واحد، ومصير واحد...!!

(8) ومعنى هذا القول هو أنّ المعلم المربي الذي يحسن التصرف مع تلاميذه يريد أن يصل بهم إلى النجاح دون ترهيب.

(9) نقلا عن محمد شطوطي، علم النفس وصلته بالتربية في بناء شخصية الطفل، دار شرشار للنشر، والتوزيع، الجزائر، 2002، ص65.

(10) الإقتراب يشير إلى معاملة الآخر معاملة ليس فيها إلاّ الإحترام، والمحبة في إطارها الإنساني.

(11) التعويض ههنا يشير إلى أنّ الإنسان صار يسهر أمام الإذاعة المرئية بدل السينما، أو ساحة القرية، أو المدينة، ومشاهدة مباراة في كرة القدم بدل أن يذهب إلى الملعب...

(12) نقول وَطنَ القوم عاش معهم في وطن واحد... ومنه المواطن، وهو الذي يتمتع بالحقوق التي يتمتع بها أبناء دولته، أو مدينته..

(13) آلان (اميل شاغتي) Alain Emile Chartier، (1951/1868)، مربي فرنسي صاحب كتاب، السياسة، ص27.

(14) كتاب آلان في السياسة politique.

(15) محمد شطوطي، منور قيروان، على مائدة علم النفس، أو الأجوبة عن الأسئلة المشروعة، دار المواهب، الجزائر، 2010، ص50.

(16) والحديث الشريف يقول: (حبّ الوطن من الإيمان)، وليس للوطن إلا ترجمة واحدة هي أنّه عزّة، وكرامة.

(17) الدونية مصطلح أورده (فرويد) في كثير من كتبه، ويشير به إلى عدم احتقار الآخر مهما صدر منه من سلوك، وإنّما باللطف، ومعرفة أسباب ودوافع هذا السلوك.

(18) حدّ المواطن من معنيين الأول هو في وطنه مهما كان مسقط رأسه، والثاني هو من (واطن) أي سكن في وطن غير وطنه لكن يعيش فيه بسلام، هذا رأيي فقط أن يحترم المواطن مقومات المجتمع الذي يعيش فيه.

(19) محمد شطوطي، في قطار الأيام (شعر)، دار المواهب، الجزائر، 2011، ص230.

(20) الغرس ههنا يشير إلى التربية لا غير.

(21) راجع كتاب مدخل إلى علوم التربية البروفيسور محمد شطوطي، والبروفيسور منور قيروان، دار عيلان للطباعة والنشر، والتوزيع، الجزائر، 2013، ص13.

(22) المرجع السابق، ص14.

(23) بشير بريقلي، محمد شطوطي، المدخل إلى كوتشينغ (المستشار الشخصي)، دار الكوثر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص86.

(24) هي النشاط المادي للإنسان من صناعة، وبناء، واكتشاف في مجال الوسائل العامة.

(25) الثقافة ههنا هي الصورة التي تطبع الشيء المادي كالملبس، واللغة، والرسم، وغيرها التي تميز المجتمع عن غيره من المجتمعات...

(26) محمد شطوطي، الذاتية الفردية من الوجهة الاجتماعية، والفلسفة في طريق الكشف، والإبداع، مجلة دراسات فلسفية، العدد 9، السنة 2013، ص28.